عمران omran
المعرّف الرقمي DOI https://doi.org/10.31430/JDAU4941
القبول Accepted 2026–2–4
التعديل Revised 2026–1–19
التسلم Received 2025–9–29

عيسى الغياتي | Aissa El Ghayyati*

من المجال الوعائي إلى المجال العلائقي: مارتينا لوف وإعادة التفكير في مفهوم المجال داخل النظرية الاجتماعية

From Container to Relational Space: Martina Löw and the Rethinking of Space in Social Theory

ملخص: تعالج الدراسة مفهوم المجال في سياق النظرية الاجتماعية، عبر البحث في جينيالوجيا المفهوم وتحولات استعمالاته في العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، كما تبلورت في السياق الأوروبي. وتستكشف التحول من فكرة المجال بوصفه وعاءً ومسرحًا للنشاط الإنساني إلى كونه إنتاجًا وبناءً اجتماعيًا؛ وهو التحول الذي حدث في أعقاب ما عُرف بـ"المنعطف المجالي"، الذي أعاد التفكير في العلاقات الأنطولوجية والإبستيمولوجية والنظرية بين المجال والزمن. وتُبيّن الدراسة أنّ توظيف منظور مارتينا لوف للمجال يسمح باعتباره ترتيبًا علائقيًا للسلع – الخيرات الاجتماعية والأشخاص في الأمكنة. وبالوقوف على تحوّلات مفهوم المجال، تسعى الدراسة إلى توضيح أنه عندما يُفهم المجال بوصفه بنية علائقية، يصبح إطارًا مرجعيًا للخيال السوسيولوجي وعدسة يمكن لعلماء الاجتماع من خلالها البحث عن رؤى جديدة وتعميق فهمهم لعدد من الأسئلة البحثية.

كلمات مفتاحية: المجال، النظرية الاجتماعية، المنعطف المجالي، الترتيب العلائقي، مارتينا لوف.

Abstract: This article examines the concept of space within social theory by tracing its genealogy and the transformations in its use across the social sciences, particularly sociology, within the European context. It explores the shift from understanding space merely as a container or stage for human activity to conceiving it as a socially produced and constructed entity. This discussion takes place in the wake of what has been called the "spatial turn," which has prompted a rethinking of the ontological, epistemological, and theoretical relations between space and time. The article demonstrates that drawing on Martina Löw's perspective makes it possible to conceptualize space as a relational arrangement of social goods and people in places. By outlining the transformations of this concept, the article argues that when space is understood in relational terms, it becomes a key frame of reference for the sociological imagination and a lens through which sociologists can develop New insights and deepen their understanding of a wide range of research questions.

Keywords: Space, Social Theory, Spatial Turn, Relational Arrangement, Martina Löw.

* باحث في علم الاجتماع، جامعة عبد المالك السعدي في المغرب.
Researcher of Sociology at Abdelmalek Essaâdi University, Morocco. Email: aissa.elghayyati@etu.uae.ac.ma

مقدمة

لطالما افترض علماء الاجتماع أنّه لا يمكن تصوّر الوجود الإنساني خارج مقولتَي "المجال" و"الزمن" Space and Time. وعلى الرغم من أهمية المفهومَين للوجود البشري، نادرًا ما جرى نقاشهما أو تحديد دلالاتهما بالتفصيل؛ نتيجة إضفاء معانٍ عامية وبديهية عليهما، باعتبارهما خاصيتين عرضيتين للفعل الإنساني[1]. فضلًا عن ذلك، لم يحظَ المفهومان بقدر متساوٍ من الاهتمام في علم الاجتماع خاصة، والعلوم الاجتماعية عامة. حتى إنّ مارتينا لوف تستغرب من تفسير الزمن بوصفه بناءً اجتماعيًا، بينما ظلّ يُنظر إلى المجال على أنه "سطح مادي" أو تراب أو مكان[2]؛ أي بوصفه معطى طبيعيًّا.

أثّر هذا المنظور للمجال في النظرية الاجتماعية وفي صياغاتها المتعددة، كما يظهر في أعمال أوغست كونت Auguste Comte، وكارل ماركس Karl Marx، وماكس فيبر Max Weber، وهربرت سبنسر Herbert Spencer، وآدم سميث Adam Smith، وغيرهم، من خلال اهتمام رواد علم الاجتماع الأوروبيين الأوائل هؤلاء بدراسة مراحل تطور المجتمعات الإنسانية وتحليلها؛ ممّا جعل تلك النظرية تميل إلى تفضيل الزمن على المجال. واستمر ذلك التفضيل حتى بداية عشرينيات القرن العشرين، حين بدأ رواد مدرسة شيكاغو الاهتمام بالمجال الحضري، وهو اهتمام استمر تأثيره إلى مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية[3].

أما من منظور إدوارد سوجا Edward W. Soja، فقد ظلّ الوضع على ما هو عليه حتى أواخر ستينيات القرن العشرين. عندها، حدث ما سيُعرف لاحقًا بـ "المنعطف المجالي" The Spatial Turn في العديد من العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ نتيجة تصاعد الاضطرابات الحضرية في جميع أنحاء العالم، إلى جانب الانتباه إلى التأثيرات القوية للمجال الحضري في السلوك البشري والتنمية المجتمعية[4]. وقد أسهم في لفت الانتباه إلى ذلك، على نحو كبير، كلٌّ من ميشيل فوكو Michel Foucault وهنري لوفيفرHenri Lefebvre، إضافة إلى عدد من الباحثين، أمثال جان ريمي Jean Rémy، ومانويل كاستلز Manuel Castells، وبيير بورديو Pierre Bourdieu، وإلى جانبهم جغرافيون، منهم دافيد هارفيDavid Harvey، وسوجا. فقد أكّدوا، كلٌّ من منظوره، دور المجال في بناء الحياة الاجتماعية وتحويلها، عبر وضع اللبنات الأولى لفهمه بوصفه إنتاجًا وبناءً اجتماعيًا، وانتقاد تقديمه باعتباره وعاءً أو مسرحًا للنشاط الإنساني.

---

(1) ديفيد هارفي، **حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي**، ترجمة محمد شيا (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005)، ص 239.

(2) Martina Löw, *The Sociology of Space: Materiality, Social Structures, and Action*, Donald Goodwin (trans.) (New York: Palgrave Macmillan, 2016), p. 1.

(3) Barney Warf & Santa Arias, "Introduction: The Reinsertion of Space in the Humanities and Social Sciences," in: Barney Warf & Santa Arias (eds.), *The Spatial Turn: Interdisciplinary Perspectives* (London/ New York: Routledge, 2008), pp. 4–5.

(4) Ibid., p. 5.

وفي هذا السياق، أسهمت أعمال فوكو ولوفيفر، على نحو خاص، في بروز ما عُرِف بـ"المنعطف المجالي"؛ إذ دافع كلاهما عن الأهمية الأنطولوجية للمجال، من خلال إعادة التفكير في العلاقات الإبستيمولوجية والنظرية بين المجال والزمن[5]. وبالنسبة إلى فوكو، ركّزت النظرية الاجتماعية، كما تبلورت في السياق الأوروبي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على التاريخ والتقدّم والتغيّر الاجتماعي والتحديث والثورة، سواء أكانت تكنولوجية أم اجتماعية أم سياسية. حتى إنّه تعجّب من اعتبار المجال فيها "ميتًا، ثابتًا، غير ديالكتيكي، ولا يتطوّر"، بينما اعتُبر الزمن، على العكس من ذلك، "ثريًا، وخصبًا، وحيًا، وديالكتيكًا"[6]. وبحسب لوف، نجد هذه النظرة الجامدة إلى المجال عند علماء الاجتماع الأوروبيين والأميركيين، القدامى نسبيًا، مثل تالكوت بارسونز Talcott Parsons، والمعاصرين، مثل بيتر بيرغر Peter Berger، وتوماس لوكمان Thomas Luckmann، وأنتوني غيدنز Anthony Giddens، الذين تصوّروه موضوعًا ماديًا في المقام الأول؛ وهو ما جعل مفهوم المجال في العديد من الأبحاث السوسيولوجية غير جدير بأيّ اهتمام خاص؛ إذ عُدَّ، في أفضل الأحوال، مجرّد "شرط بيئي"، ولم يُستخدم بوصفه مقولة تحليلية في التنظير السوسيولوجي[7].

ونتيجة لذلك، يرى فليتشي داسيتو وريمي أنّ مسألة المجال فُوِّضت إلى الجغرافيا الاجتماعية؛ وهو ما يُفسّر الغياب شبه التام للمفهوم عن القواميس والموسوعات السوسيولوجية. ففي اللسان الفرنسي، لا نجد سوى قاموس واحد يتضمّن مقالة عن مفهوم "المجال"، هو **قاموس علم الاجتماع**[8]. أمّا في اللسان الإنكليزي، فنجد مقالة أخرى من صفحة واحدة عن المجال، في **قاموس كامبريدج لعلم الاجتماع**[9]، ونجد مقالة أخرى في **قاموس علم الاجتماع** الذي حرّره جون سكوت[10]. وعلى العموم، في إمكان القارئ أن يجد، في اللسان الإنكليزي، بحسب داسيتو وريمي، مقالات تتعلق بـ"الإيكولوجيا البشرية"؛ لأنّ هذا المفهوم كان مُستخدمًا في علم اجتماع مدرسة شيكاغو، لدى روبرت إزرا بارك Robert Ezra Park، ولويس ويرث Louis Wirth، ولا سيّما رودريك ماكينزي Roderik McKenzie[11].

غير أنّ التحولات الاجتماعية، ولا سيّما الاضطرابات الحضرية التي شهدها مختلف أنحاء العالم، خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، أسهمت في إعادة التفكير في مفهوم المجال. وبالنسبة إلى لوف، كانت هذه التحولات علامات حاسمة على طريق بروز المنعطف المجالي في تسعينيات ذلك القرن والعقد الأول من الألفية الجديدة. فقد انعكس، وعلى امتداد محطات زمنية مختلفة، التصوّر

(5) Edward W. Soja, "Taking Space Personally," in: Barney Warf & Santa Arias (eds.), *The Spatial Turn: Interdisciplinary Perspectives* (London/ New York: Routledge, 2008), pp. 18–20.

(6) هارفي، ص 242–244.

(7) Löw, *The Sociology of Space*, pp. 1–2.

(8) André Akoun & Pierre Ansart, *Dictionnaire de sociologie* (Paris: Le Robert/ Seuil, 1999).

(9) Bryan S. Turner (ed.), *The Cambridge Dictionary of Sociology* (Cambridge/ New York: Cambridge University Press, 2006), p. 604.

(10) John Scott, *A Dictionary of Sociology,* 4th ed. (Oxford: Oxford University Press, 2014), p. 988.

(11) Felice Dassetto & Jean Rémy, "La question de l'espace en sociologie," *Recherches Sociologiques et Anthropologiques*, vol. 48, no. 1 (2017), pp. 145–155.

العلائقي لمفهوم المجال على مختلف التخصصات المعرفية، كما في الرياضيات مع الأشكال الهندسية غير الإقليدية، وفي الفيزياء مع النظرية النسبية، وفي الفن والأدب مع التكعيبية ومسرح العبث، وفي الهندسة المعمارية وتصميم المجال بوصفهما فنًّا[12].

وصاحب هذه التحولات نوعٌ من الانسيابية في استعمال مفهوم المجال، سواء في اللغة اليومية أم اللغة العلمية، يصفه مارك أوجيه Marc Augé بـ "موضة الاستعمال"، كما في أمثلة "المجال الجوي" Espace aérien، و"المجال الإعلاني" Espace Publicitaire، و"المجالات الخضراء" Espaces verts، وغير ذلك. ففي هذه الاستعمالات، كان المجال، بالنسبة إليه، كلمة تجريدية تدل على الموضوعات التي يراود التفكيرُ فيها العصر الحديث، مثل الإعلانات، والدعاية، والتسلية، والتنقل، والحرية[13]. لذلك، يستخدم أوجيه مفهوم "المكان الأنثروبولوجي" في مقابل "اللامكان" للخروج من أزمة المفهوم في سياق ما يسمّيه "الحداثة المفرطة". وبسبب تكنولوجيات التنقل السريع، والاتصالات الحديثة، والنقل الفوري للمعلومات، واستعمال المجالات الافتراضية، صار المجال يُختزل في سطح مادّي بلا معنى بحسب لوف[14]، ولا سيّما في ظلّ التمييز الذي يطرحه كاستلز، في إطار تنظيره لمجتمع الشبكات، بين "مجال الأماكن" و"مجال التدفقات"[15].

تعتمد هذه الدراسة مقاربة تحليلية قائمة على مراجعة البحوث والدراسات الأوروبية والأميركية التي تناولت المجال، بحيث تتتبّع المسارات النظرية التي شَكَّلت مفهوم المجال فيها. وتستند المنهجية المتّبعة إلى مسح جنيالوجي وإبستيمولوجي للنصوص التأسيسية للمفهوم والنصوص المتضمنة لتحولاته المعاصرة، مع التركيز على المقارنات البينية بين السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والجغرافيا البشرية؛ للوقوف فيها على تقاطعات مفاهيم "المجال" و"التراب" و"المكان". ويهدف هذا المسح إلى فحص كيفية انتقال المفهوم ضمن هذه العلوم، كما تبلورت في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية من حيز "المعطى الطبيعي" إلى "البناء العلائقي"، وذلك عبر استنطاق مختلف المتون النظرية التي أُنتِجت حول المجال، مع التركيز على تصوّر لوف لذلك البناء.

بناء عليه، تتمثّل أسئلة الدراسة فيما يلي: ما الاستعمالات التي عرفها مفهوم المجال؟ وما تحوّلاتها؟ ولماذا اهتم علم الاجتماع بالمجال، أو، بالأحرى، لماذا عُدَّ المجال موضوعًا مهمًّا في علم الاجتماع؟ وما علاقة المجال بالمكان وبالتراب؟ أهو معطى طبيعي أم بناء وإنتاج اجتماعي؟

إنّ الغاية القصوى التي تسعى الدراسة لبلوغها هي بيان الترابط المتين بين تحولات المفهوم وتحولات العلم الاجتماعي ذاته؛ بحيث لا تسهم في قراءة تاريخ هذه التحولات ووضع علاماتها

(12) Löw, *The Sociology of Space*, p. xi.

(13) مارك أوجيه، **اللاأمكنة: مدخل إلى أنثربولوجيا الحداثة المفرطة**، ترجمة ميساء السيوفي (المنامة: هيئة البحرين للثقافة والآثار، 2018)، ص 85.

(14) Löw, *The Sociology of Space*, p. 2.

(15) Manuel Castells, "Local and Global: Cities in the Network Society," *Tijdschrift voor Economische en Sociale Geografie*, vol. 93, no. 5 (2002), pp. 552–556.

الفارقة فحسب، بل تسهم أيضًا في تطوير المناقشة المفهومية حول المجال، بما يخدم إغناء العلوم الاجتماعية في منطقتنا العربية بها.

أولاً: جينيالوجيا مفهوم المجال

يُعدّ تتبع تاريخ الأفكار المتعلقة بالمجال خطوة أولى لتوضيح أهميته السوسيولوجية، في سياق معرفي متعدد التخصصات، تكوّن من تقاليد علمية استخدمت فكرة المجال بطرائق مختلفة؛ بحيث يصعب رصد معانيها المعاصرة، أو توليد رؤى جديدة لها، من دون مراجعة التقاطعات التي مرّ بها المفهوم، والتمييزات التي شهدها في علاقته بالأفكار المجاورة له. فللمجال، بحسب سيتا لو، تاريخ طويل وغامض في الفلسفة والعلوم الاجتماعية والهندسة المعمارية، كما مورست في أوروبا والولايات المتحدة. وهنا، تبرز أهمية الجينيالوجيا، كما يحدّدها فوكو، بوصفها مقاربةً تتبّع علاقة الأفكار بأصولها وبداياتها، بكل تفاصيلها[16]، من أجل معرفة كيف تكوّنت الأشياء والمعاني والمفاهيم. وفي هذه الدراسة، نستخدم مصطلح "جينيالوجيا" Genealogy، بمعناه الفوكوي هذا، لتحديد مجموعة من الأفكار التي تحوم حول المجال، وتتشابه ويتأثّر بعضها ببعض، من دون الاقتصار على تأريخ صارم للمسار الخاص بكل واحدة منها منفردة[17].

1. المناظير المطلقة والنسبية للمجال في الفيزياء

جينيالوجيًا، من المهم معرفة التقاليد الفكرية الفلسفية والفيزيائية الأوروبية التي سبقت توليد مفهوم المجال، ودراسة منطلقاتها في تحديده وكيفية النظر إليه. وهي تقاليد أثّرت في دلالاته العلمية في حقول العلوم الاجتماعية، وحتى في الخطاب اليومي. لقد انطلقت تلك التقاليد من تصوّر فلسفي قائم على فكرة المجال بوصفه وعاء Container[18]، وهو تصوّر منبثق من الفيزياء الكلاسيكية في شكل "مجال (فضاء) إقليدي ثلاثي الأبعاد". ويرجع هذا التصوّر، في جانب منه على الأقل، إلى تأثير إسحاق نيوتن Isaac Newton، الذي تحدّث عن "المجال المطلق" باعتباره فضاءً مستقلاً ومتجانسًا وغير متحرك.

غير أنّ فكرة نيوتن عن المجال المطلق هذه لم تمرّ دون معارضة؛ إذ انتقد غوتفريد فيلهلم لايبنتز G. W. Leibniz، فكرة وجود مجال (فضاء) مستقل، وأكد بدلاً من ذلك "مجالية الأجسام"؛ أي تصورها في علاقتها بالأجسام الأخرى. ورفض إيمانويل كانط Immanuel Kant هو أيضًا الطرح القائل إنّ للمجال حقيقة خاصة به؛ بحيث طوّر فهمًا له باعتباره مبدأ ترتيب سابقًا لكل التجارب. ومع ذلك، فإنّ ميكانيكا نيوتن وفلسفة كانط تستندان كلتاهما إلى الافتراض الضمني بأنّ المجال يمكن تحديده عن طريق الرياضيات الإقليدية.

(16) ميشيل فوكو، "نيتشه، الجينالوجيا والتاريخ"، في: ميشيل فوكو، **جينالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1988)، ص 68.

(17) Setha Low, *Spatializing Culture: The Ethnography of Space and Place* (London/ New York: Routledge, 2017), p. 11.

(18) Ibid., pp. 12–13.

وفي نحو سنة 1830، ومع ظهور الهندسة غير الإقليدية والنظرية النسبية ونظرية الكمّ، وعدد من الاكتشافات الجديدة الأخرى في الفيزياء، تغيّر الموقف تجاه المجال، خصوصًا مع أعمال ألبرت أينشتاين Albert Einstein، الذي تصوّر المجال (الفضاء الكوني)، على أنّه صفة موقعية لعالم الأجسام أو "ترتيب للأشياء". ومن خلال تأكيده وحدة المجال والزمان والمادة، أصبح ممكنًا تصوّر الكون على أنّه حالة حركة. وينسجم هذا التصوّر مع اعتبار المجال بنية علائقية قائمة بين أجسام تتحرّك باستمرار[19].

وإذا ما لخّصنا هذه التحولات، أمكن أن نخلص إلى فهمَين للمجال: يعرّفه الأول على أنّه شيء مطلق، ثابت وفارغ، ينتظر أن يُملأ، أو هو وعاء أو مسرح للحركة والنشاط، سواء أكانت هذه الحركة فيزيائية (بين أجرام)، أم إنسانية (بين ذوات وكتل بشرية). أمّا الثاني، فيراه في صيغة علائقية، لا يوجد فيها إلا في ارتباطه بالزمن والحركة والأشياء والأحداث؛ بحيث كفّ عن اعتباره مستقلاً عنها، وصار يُنظر إليه على أنّه يتكوّن من العلاقات فيما بينها، فلا يوجد خارج العمليات التي تحدّده[20]. وقد كان لهذه النقاشات في الفيزياء والفلسفة تأثير كبير في مقاربة المجال في علم الاجتماع؛ إذ يمكن التمييز بين مفاهيمه النسبية ومفاهيمه المطلقة داخل الحقل السوسيولوجي.

2. المناظير المطلقة للمجال في العلوم الاجتماعية

تلخّص لوف المقاربات العلمية الاجتماعية للمجال، المؤسسة على المناظير المطلقة الأكثر انتشارًا، في ثلاثة تصورات مختلفة. تُطلق على التصور الأول "المفهوم المكاني للمجال"، وهو يظهر عند بيرغر ولوكمان في مفهوم المجال المتطابق مع المكان، أو عند غيدنز الذي يتصوّر المجال على أنه معطى أنطولوجي ذو سياق محلي. وعلى الرغم من أنّ غيدنز يعدّ المجال والزمان بعدَين مركزيَين في النظرية الاجتماعية، فإنّ تصوّره للمجال لا يتجاوز اعتباره معطًى طبيعيًّا يحيط بالأشخاص، ووعاءً للفعل الإنساني. ويتضح ذلك في نظرته إلى المدرسة بوصفها مجالاً أو "وعاء يُوَلّد سلطة تأديبية"[21].

أمّا التصور الثاني، فتُسمّيه "المفهوم الترابي للمجال"، وهو إعادة تعريف للمجال في علم الاجتماع الحضري والجهوي خاصة، مع ما نتج من ذلك من رفض للمجال موضوعًا لعلم الاجتماع. وتتحدث لوف عن علم الاجتماع الحضري بوصفه تخصّصًا بلا مجال، نظرًا إلى تأثير الإيكولوجيا الاجتماعية لمدرسة شيكاغو، التي تعامل روادها مع المجال على أنه مناطق معطاة طبيعيًا، ومقسمة إلى أوعية ذات أحجام مختلفة. فقد كانت تلك المدرسة تضع العوامل المجالية فوق العوامل الاجتماعية والاقتصادية، وتعدّ البنى المجالية المعزولة أسبابًا مستقلة للعمليات الاجتماعية[22].

(19) Löw, *The Sociology of Space*, pp. 20–23.

(20) Ibid., p. 15.

(21) Ibid., p. 26.

(22) Ibid., p. 37.

وأمّا التصور الثالث، فهو التطبيق السوسيولوجي للمفهوم الكانطي عن المجال، خصوصًا مع جورج زيمل Georg Simmel، الذي يستمد مفهومه للشكل من الفلسفة الكانطية، باعتماده مبادئ الهندسة الإقليدية بوصفها مبدأ ترتيبيًا سابقًا لكل التجارب. ينظر زيمل إلى المجال على أنّه وعاء للعمليات الاجتماعية، وباعتباره شكلاً لا يملك أي تأثير في حدّ ذاته. في هذا التصوّر، لا يكون المجال منتِجًا للظواهر الاجتماعية، بل إنّ التجمعات البشرية هي التي تُنتجها. ولذلك، يرى أنّ المجال لا يتجلّى إلا من خلال إدراك الناس له، وأنّه لا وجود له في الواقع خارج الأحاسيس البشرية. وتأثرًا بكانط، يَعدّ زيمل المجال المطلق بناء فكريًا محضًا، وأنّ مجالية الأشياء لا تتحقّق إلا عبر الإدراك والخيال[23].

وتتمثّل النقطة الإشكالية في هذه المناظير المطلقة للمجال في أنه يُصوَّر فيها على أنه ثابت وجامد، فيبدو غير متحرك وبعيدًا عن سياق الفعل. وقد ترتّب على ذلك تجنّب العديد من علماء الاجتماع دراسة المجال؛ لأن المجتمع يُفسَّر فقط على أساس العمليات الاجتماعية. وفي حالات أخرى، اقتصر الأمر على تحديد نقاط الاتصال بين الواقع المجالي والفعل فحسب. وبذلك، لم يُؤخذ في الاعتبار أنّ تطوّر المجالات هو، في حدّ ذاته، جانب من جوانب العمليات الاجتماعية؛ إذ يمنع البناء المعياري للمجال، بوصفه شيئًا من المفترض أن يكون موحدًا وكليًا، رؤية عملية التغيير، لأن القول بوجود المجال المطلق لا يسمح بظهور الفكرة القائلة إن عدّة مجالات يمكن أن تتشكّل في مكان واحد[24].

3. المناظير النسبية للمجال

برزت المفاهيم النسبية للمجال في العلوم الاجتماعية بتأثير كلٍّ من فوكو ولوفيفر، إضافة إلى عدد من الباحثين الذين أسهموا في تطوّر مفهوم المجال في النظرية الاجتماعية. فقد تبلورت معظم المناظير النسبية للمجال والممارسات المجالية من خلال نقد النظام الرأسمالي، الذي يسعى للهيمنة على المجال كما بيّن لوفيفر، أو من خلال ربط المجال بالسلطة والمعرفة والجسد كما رأى فوكو، فضلاً عن فكرة الاستعارة التي طوّرها بورديو عن المجال الاجتماعي بوصفه طوبولوجيا اجتماعية.

أ. المجال والحياة اليومية والنظام الرأسمالي

طوّر لوفيفر أفكاره حول المجال على أساس نظريته في نقد الحياة اليومية في المجتمع الرأسمالي، معتبرًا أنّ الهيمنة على المجال هي الوسيلة التي تستولي بها الرأسمالية على السلطة. وقد أكّد في كتابه **إنتاج المجال** أنّ العيب الأساسي في معظم نظريات المجال يكمن في تصوّرها له على أنّه وعاء أو فراغ يجب ملؤه بالمحتويات. وخلافًا لذلك، يُعدّ لوفيفر المجال إنتاجًا اجتماعيًا. وعندما نقول إنّ المجال "مُنتَج"، فذلك يعني أنّه علاقة اجتماعية؛ فهو متأصل في علاقات الملكية، ولا سيّما ملكية الأرض، كما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بقوى الإنتاج التي تفرض شكلاً لتلك الأرض[25].

(23) Ibid., p. 43.

(24) Ibid., p. 106.

(25) Henri Lefebvre, *The Production of Space*, Donald Nicholson–Smith (trans.) (Oxford, UK/ Cambridge, MA: Blackwell, 1991), p. 85.

وهكذا، سعى لوفيفر في تحليله للتوفيق بين تصوّرين متميّزين ومتنافسين للمجال. الأول هو المجال الذهني أو الأيديولوجي وهو مجال التخصصات الفكرية، والثاني هو المجال المادي أو الطبيعي الذي نعيش فيه. وعلى هذا الأساس، طوّر لوفيفر فهمًا للمجال الاجتماعي لا يمكن فيه فصل المجال الذهني، كما حدّده الفلاسفة وعلماء الرياضيات، عن المجال المادي، كما يُحدّده النشاط الحسي[26].

ولفهم المجال الاجتماعي وتأثيره في شكل الحياة اليومية وبنيتها وتجربتها المعيشة، يحدد لوفيفر ثلاثة عناصر ضرورية لإنتاج المجال، هي: الممارسات المجالية التي تنتج المجال مُدركًا، وتمثّلات المجال التي تنتج المجال مُصمّمًا، ومجال التمثّلات، وهو المجال معيشًا. ومن أجل تملّك المعرفة الحقيقية بإنتاج المجال، يحتاج المرء إلى فهم التفاعل الدينامي والترابط المتبادل بين العناصر الثلاثة. وبالنسبة إلى لوفيفر، يكون العنصر المهيمن في هذا الثالوث، في ظلّ الرأسمالية، هو تمثّلات المجال الذي يعكس احتياجات التمويل، ورأس المال، والنخب الاقتصادية والسياسية وأولوياتها. ففي هذا السياق، يُنتج المجال من خلال محاولات تشكيله وتمثيله والسيطرة عليه؛ وهو ما ينتج الأشكال المجالية السائدة[27].

وتأثّرًا بنظرية لوفيفر، طوّر سوجا ثلاثة مصطلحات يرى أنها أكثر عمومية وأقل تحيّزًا، وهي: "المجال الأول" Firstspace أي المجال المادي، و"المجال الثاني" Secondspace أي المجال الذهني، وهما يتّحدان معًا لتكوين "المجال الثالث" Thirdspace، وهو المجال الاجتماعي الذي لا يمكن مناقشته أو دراسته بمعزل عن المجالَين الأول والثاني[28].

أمّا الجغرافي الماركسي هارفي، فيشير إلى أن فكرة الهيمنة على المجال بوصفها مصدرًا أساسيًا للسلطة الاجتماعية تعود إلى لوفيفر، مؤكّدًا أنّ القدرة على التأثير في إنتاج المجال تعدّ وسيلة مهمة لزيادة قوّة السلطة الاجتماعية. فالذين يؤثّرون في التوزيع المجالي للاستثمارات في النقل والاتصالات، وفي البنى التحتية المادية والاجتماعية، أو في توزيع الأراضي لفائدة السلطة الإدارية والسياسية والاقتصادية، غالبًا ما يحصدون مكافآت مادية. ومن ثم، يكونون هم الذين يتمكنون من السيطرة على سياسات المجال[29]. ومن ذلك يخلص هارفي إلى أنّ الأنشطة المجالية والزمانية ليست محايدة اجتماعيًا، بل تظهر دائمًا بمضمون طبقي أو اجتماعي، وهي في الغالب محور صراع طبقي عنيف[30].

أمّا إيمانويل كاسلتز، فينطلق من مقاربة ماركسية سعيًا منه لبناء نظرية في المجال، متأثرًا بفكرة لوفيفر القائلة إنّ المدينة هي "إسقاط للمجتمع على المجال"[31]. وهو ينتقد تصورات مدرسة شيكاغو،

(26) Andrzej zieleniec, *Space and Social Theory* (London: SAGE Publications Ltd., 2007), p. 70.

(27) Andrzej Zieleniec, "The Right to Write the City: Lefebvre and Graffiti," *Environnement Urbain*, vol. 10 (2016).

(28) Qingqing Yang, *Space Modernization and Social Interaction* (Berlin: Foreign Language Teaching, 2015), p. 6.

(29) هارفي، ص 273.

(30) المرجع نفسه، ص 280.

(31) Manuel Castells, *The Urban Question: A Marxist Approach*, Alan Sheridan (trans.) (London: Edward Arnold, 1977), p. 117.

أو ما يُعرف بـ"الإيكولوجيا الحضرية"، التي يراها قد أهملت مسألة التمايز بين الفئات الاجتماعية؛ لأن امتلاك المجال جزء من عملية الصراع، ولأنّ هذا الصراع ليس مسألة تنافس فردي خالص، بل يقع في صلب المواجهات بين المجموعات الاجتماعية[32]. وعلى هذا الأساس، حاول كاستلز، من خلال المفاهيم الأساسية للمادية التاريخية، بناء نظرية بنيوية للمجال، وبالتحديد حول شكل المجال الاجتماعي. يجادل كاستلز بأنّه يمكن فهم أي شكل اجتماعي، مثل المجال، من خلال فهم أنماط الإنتاج التي تتجلى في أنظمة ممارسات البنية الاجتماعية. ويقتضي تحليل المجال، بوصفه تعبيرًا عن البنية الاجتماعية، دراسة تشكيله من خلال عناصر النظام الاقتصادي، والنظام السياسي – المؤسسي، والنظام الأيديولوجي[33].

ب. المجال والجسد والسلطة

يمكن العودة إلى فوكو، الذي أدّى دورًا أساسيًا في تطوير مفهوم المجال، للتذكير بأنه أكّد في محاضرة ألقاها عام 1967، بعنوان "مجالات أخرى Des espaces autres"، أنّ هوس القرن التاسع عشر كان بالتاريخ وبموضوعات التنمية والتقدم؛ ولذلك حاول إعادة تسليط الضوء على المجال في الحياة الاجتماعية، معتبرًا أنه يأخذ في عصرنا شكل "علاقات بين المواقع". وعلى هذا الأساس، أكّد أننا لا نعيش في فراغ نضع فيه الأفراد والأشياء، بل داخل مجموعة من العلاقات التي تحدد المواقع الاجتماعية[34]. واعتمد فوكو، في عمله عن السجن[35]، مقاربة تاريخية من خلال تحليل الجسد البشري والترتيبات المجالية والعمارة؛ فدرس علاقة السلطة بالمجال من خلال الهندسة المعمارية، بوصفها آلية معقدة لممارسة السلطة على الأفراد، بهدف إنتاج "جسد طيّع" Docile Body من خلال حجزه ومراقبته في مكان مسيطر عليه ومنظّم. وهكذا، يعالج فوكو كيف تُسهم العلاقات المجالية والهندسة المعمارية في الحفاظ على سلطة مجموعة على أخرى عبر التحكم في الحركة ومراقبة الجسد.

وعلى المنوال نفسه، تعدّ دورين ماسي Doreen Massey المجال نتاجًا للعلاقات الاجتماعية والسياسية؛ فهي لا تنظر إليه بوصفه بُعدًا ثابتًا ومُطلقًا، بل بوصفه بنية تتشكّل من خلال العلاقات الاجتماعية. ومن ثمّ، ترى أنّ المجال بهذا المعنى دينامي ومتعدّد، ويتجلّى عبر المقاييس المجالية

(32) Ibid., p. 121.

(33) في تصوّر كاستلز، تتحدّد عناصر النظام الاقتصادي على المستوى المجالي من خلال عنصرَين رئيسين: الإنتاج (التعبير المجالي لوسائل الإنتاج)، والاستهلاك (التعبير المجالي لقوة العمل). أمّا النظام السياسي – المؤسسي للمجال، فيتمحور حول علاقتين: علاقة هيمنة – ضبط، وعلاقة اندماج – قمع؛ بحيث تكون الأماكن التي يتموضع فيها الفاعلون تعبيرًا مجاليًا عن هذا النظام، من خلال تقطيع المجال، على سبيل المثال "الكوميونات"، والمناطق الحضرية ... إلخ. وأخيرًا، ينتظم النظام الأيديولوجي للمجال من خلال تمييزه بشبكة من الإشارات، تتكوّن دلالاتها من أشكال مجالية ومحتويات أيديولوجية. ومن ثمّ، يمكن فهم التنظيم الاجتماعي للمجال، بحسب كاستلز، على أساس تحديد الأشكال المجالية من خلال كلّ عنصر من عناصر الحالات الثلاث: الاقتصادية، والسياسية – القانونية، والأيديولوجية؛ وهي إحالات ينبغي، تحليليًا، دمجها في بعض. ينظر: Ibid., pp. 125–127.

(34) Michel Foucault, "Of Other Spaces," Jay Miskowiec (trans.), *Diacritics*, vol. 16, no. 1 (Spring 1986), p. 23.

(35) ميشيل فوكو، **المراقبة والعقاب: ولادة السجن**، ترجمة علي مقلد (بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990).

جميعها، من الامتداد العالمي للتمويل والاتصالات، مرورًا بجغرافيا السلطة السياسية الوطنية، وصولاً إلى العلاقات الاجتماعية داخل المدينة والأسرة ومكان العمل. لذلك، تعدّ ماسي المجال منفتحًا على السياسة، وعنصرًا ضروريًا فيها بالمعنى الواسع للكلمة[36].

ج. المجال بوصفه استعارة

يُعدّ بورديو من أهم الباحثين الذين عملوا على تطوير مفهوم المجال في علم الاجتماع، وإن كان يستخدمه على سبيل الاستعارة للحديث عن "طوبولوجيا اجتماعية". فهو يعرّفه بأنّه الامتداد والسطح والحجم الذي يشغله الفرد أو الشيء في المجال المادي. وعلى غرار لوفيفر، يميّز بورديو بين المجال الفيزيائي والمجال الاجتماعي. فإذا كان الأول محدّدًا بأطرافه الخارجية، فإنّ الثاني محدد بالإقصاء المتبادل للمكانات. ويتجسّد المجال الاجتماعي، بالنسبة إلى بورديو، في المجال المادي، وبذلك يتّخذ التراتب الاجتماعي صيغة تراتب مجالي[37].

ويشير بورديو إلى أنّ الأشخاص المتقاربين في المجال الاجتماعي يميلون إلى احتلال مواقع قريبة بعضها من بعض في المجال الجغرافي. ويؤكّد أنّ القوى الاجتماعية الأساسية التي تتحكّم في العلاقات الموضوعية (المسافة والقرب) هي: رأس المال الاقتصادي بأشكاله المختلفة، ورأس المال الثقافي، ورأس المال الرمزي. وهكذا يُوزَّع الفاعلون في المجال الاجتماعي الذي يصبح هنا بمنزلة "حقل" أو "طبقة"[38].

وتأثّرًا ببورديو، حاول كلٌّ من برنارد ميشوني وميشيل كويبل الفصل بين المجال المادي والمجال الاجتماعي، وأشارا إلى استخدام مفهوم المجال بوصفه استعارة، حين يتعلّق الأمر بمكانة الخصائص الاقتصادية والثقافية والاجتماعية[39]. ويؤكّد الباحثان أنّ "الاجتماعي" يُفرط في تحديد "المادي"، وأنّ أسبقية الاجتماعي على المادي هي أسبقية البنى على الأفراد. ولذلك، فإنّ المعنى الذي يمكن أن نعطيه للمجال يقوم بالأحرى على مقارنته بتعابير، مثل "مجال للنقاش والحوار والمواجهة". وبهذا المعنى، يؤدي اللجوء إلى مفهوم المجال إلى تجاوز خصائصه الجغرافية[40]، ليصبح فكرة مجردة ينبغي أن تشبه مفهوم النظام الاجتماعي.

وتقودنا هذه الفكرة، القائلة بوجوب مقارنة المجال بفضاءات النقاش والحوار، إلى استحضار مفهوم "المجال العمومي" كما صاغه يورغن هابرماس Jürgen Habermas، بوصفه فضاء مفتوحًا وحرًّا

(36) Doreen Massey, *Space, Place, and Gender* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1994), pp. 1–4.

(37) بيير بورديو، "تأثيرات المكان"، في: **بؤس العالم، الجزء الأول: رغبة الإصلاح**، إشراف بيير بورديو، ترجمة محمد صبح (دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، 2010)، ص 240.

(38) Pierre Bourdieu, "Espace social et pouvoir symbolique," in: *Choses dites* (les Éditions de Minuit, 1987), p. 147.

(39) Bernard Michonet & Michel Koebel, "Pour une définition sociale de l’espace, " in: Pernette Grandjean (dir.), *Construction identitaire et espace* (Paris: L’Harmattan, 2009), p. 40.

(40) Ibid., pp. 42–43.

يسمح للمواطنين بالتعبير عن آرائهم في مسائل ذات مصلحة عامة[41]. ويجعل ذلك المجال العمومي ضروريًا لمشاركة ديمقراطية فعلية وللعملية الديمقراطية برمتها. غير أنّ هذا المجال العمومي السياسي، بحسب هابرماس، يتحكّم فيه البرجوازيون أصحاب المصالح التجارية، الذين يتلاعبون بالرأي العام من خلال وسائل الإعلام الجماهيري[42].

وفي سياق هذه المناقشات، يرى السوسيولوجي توماس جيرين أنّ الإيكولوجيا الحضرية ونظريات الاقتصاد السياسي كلتاهما تقع في نوع من الحتمية البنيوية؛ ما يؤدي إلى تجاهل لعبة الفاعلين في صنع المكان[43]. وبحسب ريمي، يظل مفهوم المجال بوصفه استعارة ناقصًا هو أيضًا؛ لأنّ له، بماديته، بُعدًا جوهريًا في التحليل السوسيولوجي. ومن دون هذا التعبير المادي، يصبح المجال استعارة فحسب، كما استخدمه بورديو فعلاً في صيغة "المجال الاجتماعي"، وهابرماس في صيغة "المجال العمومي". وعلى ذلك، فإنّ اهتمام عالم الاجتماع، بالنسبة إلى ريمي، لا ينصب على المجال في حدّ ذاته، بل على المساهمة التي يمكن أن يُقدّمها في تكوين الفاعلين الاجتماعيين وعلاقاتهم من حيث التمثّل والتفاعل. إنّ التفكير في المجال يعني التفكير في الاجتماعي بأبعاده المادية[44]، ولا سيّما أنّ بناء مفهوم المجال من الناحية العلائقية، بحسب فولر ولوف، يتطلّب تحديده انطلاقًا مما هو سوسيومجالي Socio–Spatial، لا انطلاقًا مما هو استعاري Metaphoric[45].

ثانيًا: المجال والمكان والتراب في العلوم الاجتماعية

اضطلع المنعطف المجالي بدور أساس في تحولات عدد من المفاهيم المجالية، ومنها على وجه الخصوص: المجال، والمكان، والتراب. وعلى الرغم من وجود ارتباط دلالي وتقاطعات بين معاني هذه المفاهيم، فإنّ استعمالها الشائع في التخصصات المعرفية أدى، بحسب سيتا لو، إلى اختلافات في دلالاتها. فبينما يشير بعض الباحثين إلى أنّ هذه المفاهيم تغطي الحقل نفسه، يميّز باحثون آخرون بينها. وتؤكّد سيتا لو أنّ الاختلافات في استعمالها تعود إلى الخلفيات النظرية للباحثين. فعلى سبيل المثال، تكمن وراء استخدام الجغرافيين البشريين وعلماء النفس البيئيين لمفهوم المكان النظريات الفينومينولوجية ونظريات المعرفة. أمّا الماركسية والماركسية الجديدة والرياضيات والهندسة والمادية التاريخية، فهي الأسس النظرية التي يستند إليها الباحثون الذين يستخدمون مفهوم المجال[46].

(41) Jürgen Habermas, "The Public Sphere: An Encyclopedia Article (1964)," Sara Lennox & Frank Lennox (trans.), *New German Critique*, no. 3 (1974), pp. 11–12.

(42) أنتوني غيدنز وفيليب صاتن، **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، ترجمة محمود الذوادي، سلسلة ترجمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 245–246.

(43) Thomas F. Gieryn, "A Space for Place in Sociology," *Annual Review of Sociology*, vol. 26 no. 1 (2000), p. 469.

(44) Jean Rémy, "Spatialité du social et transaction," *SociologieS*, 16/6/2016, accessed on 1/6/2026, at: https://acr.ps/hBybGGa

(45) Martin G. Fuller & Martina Löw, "Introduction: An Invitation to Spatial Sociology," *Current Sociology*, vol. 65, no. 4 (2017), p. 476.

(46) Löw, *The Sociology of Space*, p. 12.

1. المجال والمكان واللامكان

يُحلّل الجغرافيون الفينومينولوجيون المكان بدلاً من المجال، اعتمادًا على مارتن هايدغر Martin Heidegger، الذي يُعرّف المكان بوصفه مجالاً ثقافيًا وحميميًا، من خلال تركيزه على مشاعر الإنسان في مسكنه[47]. وعلى المنوال نفسه، يشير الجغرافي الفينومينولوجي، إدوارد ريلف، إلى أنّ أهمية المكان تتجلّى في التجربة الإنسانية باعتبارها تجربة عميقة ومليئة بالمعنى، وهي بالنسبة إليه أساس الوجود البشري[48]. ويستخدم الجغرافيون الفينومينولوجيون مفهوم المكان في مقابل "اللامكان"، حينما تصبح الجغرافيا خالية من الأماكن المميزة، وتتركز في مجموعة من الأماكن المجردة من معناها الإنساني، التي صمّمها الخبراء والمخططون الحضريون من زاوية تقنية محضة؛ ممّا يُسهم في تقويض أهمية المكان لكل من الأفراد والثقافات[49].

غير أنّ الأطروحة الأشدّ تأثيرًا في هذا السياق، هي التي صاغها الأنثروبولوجي الفرنسي، أوجيه، في حديثه عن "المكان الأنثروبولوجي"، بوصفه متضمنًا ثلاث خصائص مشتركة: "الهوية، والعلائقية، والتاريخية"[50]. ويسمح غياب هذه الخصائص الثلاث بوسم ذلك المجال باللامكان. فاللامكان نتاج للحداثة المفرطة، كما في المطارات، والطرق السريعة، والمراكز التجارية الكبرى، وغير ذلك. وهو مجال يشعر فيه من يدخله بالتحرر من محدداته المعتادة، ويقتصر فيه على ما يفعله أو يعيشه كما لو كان مسافرًا أو زبونًا. ويوجِد هذا المجال وحدة وتشابهًا، لكنه لا ينتج هوية فريدة، ولا يفسح مجالاً للحديث عن التاريخ داخله؛ إذ تغلب عليه الراهنية ومتطلبات الحاضر[51]. وبعبارة أخرى، وبحسب زيغمونت باومان Zygmunt Bauman، فإنّ اللامكان هو مجال عام غير اجتماعي، لا يشجع على المكوث ويخدم الاستهلاك؛ كونه مجالاً يشجع على الفعل لا على التفاعل[52].

إنّ المكان، بحسب الجغرافي ميشيل لوسو، هو أصغر وحدة مجالية معقدة؛ فهو الأصغر لأنه يشكّل المجال الأساسي للحياة الاجتماعية، وهو معقد لأنّ تعقيد المجتمع موجود فيه. فالمكان له شكل معماري ثابت مع تغيّرٍ في حالاته؛ إذ إنّ المكان في الليل ليس هو نفسه في أثناء النهار، لكنه يرتبط في كلّ حالاته بممارسات الأفراد والتمثّلات والخطابات. فلا يوجد مكان على نحو كامل، إلا بقدر ما يكون له نطاق اجتماعي محمّل بالقيم المشتركة التي يمكن أن يتعرّف الأفراد إلى أنفسهم من خلالها[53].

(47) Ibid., p. 21.

(48) Edward Relph, *Place and Placelessness* (London: Pion, 1976), p. 4.

(49) Ibid., p. 143.

(50) هوياتي، بمعنى أن عددًا من الأفراد يمكنهم التعرّف إلى أنفسهم فيه، وتحديد هويتهم من خلاله؛ وعلائقي، بمعنى أن عددًا من الأفراد يمكنهم أن يقرؤوا فيه العلاقة التي تربط بعضهم ببعض؛ وتاريخي، بمعنى أن مستوطني ذلك المكان يمكن أن يجدوا فيه علامات متنوعة، مثل استيطان قديم أو إشارة إلى نسب. ينظر: مارك أوجيه، **أنثروبولوجيا العوالم المعاصرة**، ترجمة طواهري ميلود (الجزائر/ بيروت: دار ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية – ناشرون، 2016)، ص 135.

(51) أوجيه، **اللاأمكنة**، ص 104–105.

(52) زيجمونت باومان، **الحداثة السائلة**، ترجمة حجاج أبو جبر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)، ص 156.

(53) Michel Lussault, *L'Homme spatial: La construction sociale de l'espace humain* (Paris: Seuil, 2007), p. 81.

أمّا السوسيولوجي جيرين، ولئن كان يستخدم مصطلح المكان عوضًا عن المجال، فيرى أنّ هذه التصورات تنطلق من فكرة أنّ الثورات التقنية في النقل والاتصالات قد أزالت العوائق التي فرضها الموقع والمسافة على التفاعل البشري وتدفق السلع أو رأس المال أو المعلومات. وعلى عكس الأفكار السابقة لتحليله حول اللامكان، يؤكد جيرين أنّ المكان ما يزال قائمًا، بوصفه عنصرًا مكوّنًا للحياة الاجتماعية، وفاعلاً في عمليات التغيير الاجتماعي[54]. وتنتقد ماسي تصورات اللامكان؛ لأنها تميل إلى تحديد "الأماكن" بوصفها، بالضرورة، مواقع للحنين إلى الماضي، وباعتبارها رؤية للمكان على أنه مقيد ومتفرد وثابت[55]. ومن زاوية التحليل السوسيولوجية نفسها، يتحدث جيرين عن ثلاث خصائص ضرورية لتعريف المكان: الموقع الجغرافي، والشكل المادي، والمعاني التي ترتبط بالاسم والتمثلات والإدراك والخيال والذاكرة. وهو ينتقد تصورات المكان القائمة على الهندسة المجردة (المسافة، والاتجاه، والنمط، والشكل، والحجم) والمنفصلة عن الشكل المادي والتفسير الثقافي. فالمكان هو المجال الذي يملؤه الأشخاص والممارسات والأشياء والتمثّلات، وليس خلفية مادية فحسب، بل هو أيضًا فاعل في اللعبة الاجتماعية، وله تأثيرات قوية في الحياة الاجتماعية[56].

وفي مجمل مناقشة سيتا لو للعلاقة بين المجال والمكان، تعدّ المجال البناء الأكثر عمومية وتجريدًا. وهو يحتفظ بإنتاجه الاجتماعي وأصوله المادية التي تنتج من الأجساد والمجموعات الاجتماعية، وكذلك من القوى التاريخية والسياسية. وعلى خلاف ذلك، يُستخدم المكان بمعنى المجال المخصَّص، من خلال إسناد المعاني إليه وإضفاء المشاعر عليه. إنّ الموقع المجالي للذاتية والهويات هو الذي يحوّل المجال إلى أماكن، أي إلى مجالات معيشة[57].

2. المجال والتراب

تطوّر مفهوم التراب Territory، بحسب لوف، بوصفه أحد أشكال تنظيم المجال، بين القرنَين السادس عشر والثامن عشر، عبر ثلاث ممارسات أساسية، هي: المسح الطوبوغرافي، وحفظ السجلات الإحصائية والخرائطية، والترابية Territoriality المُتولدة عن طريق الدولة ذات الحدود الواضحة المعالم. ويتجلّى هذا التنظيم، بمختلف الممارسات الاجتماعية المكوّنة له، في نموذج الدولة القومية. ويرتبط المفهوم بإمكانية السيطرة على الأشخاص من خلال التحكم في المجالات. ويسمح بناء المجالات الترابية للدولة، بحسب لوف، بتصوّرها على أنّها مجالات حصرية. وهنا، يتّضح ميل العصر الحديث إلى ترتيب العالم في صيغة وحدات مجالية محددة ومتجانسة داخليًا[58].

وينتقد الجغرافيون أنفسهم معالجة التراب بهذا المعنى؛ إذ تؤدي النزعة الترابية، بحسب آرائهم، إلى تفاقم القومية والقبلية والعرقية، مع ما يترتب على ذلك من ظواهر الإقصاء و"التطهير". فهذه النظرة،

(54) Gieryn, p. 463.

(55) Massey, pp. 3–4.

(56) Gieryn, pp. 465–467.

(57) Löw, *The Sociology of Space*, p. 32.

(58) Ibid., p. xi.

بحسب جويل بونميزون، تختزل التراب في "الحدود"، اختزالاً يُستخدم في توليد الحرب، وفي تكريس ضرورة حتمية للدفع نحو الغزو والدفاع عن المجال[59]. وعلى الرغم من تحفظ بونميزون على هذا التفسير لمفهوم التراب، فإنه ينظر إلى التراب على أنه مجال تستولي عليه الجماعات الإنسانية، وتنظمه، وتعيد إنتاجه على نحو يضمن تلبية احتياجاتها. علاوة على ذلك، يحاول بونميزون التأسيس لمفهوم التراب بوصفه مكمّلاً لمفهوم المجال الذي هيمن عليه الطابع الاقتصادي. وبالنسبة إليه، هذا ما دفع عددًا من الباحثين الجغرافيين إلى إدراج مفهوم التراب ضمن برادايم جديد للجغرافيا البشرية[60]. ويثير كلود رافستين الفكرة ذاتها، من حيث إنّ مفهومَي التراب والترابية برزا في سياق عدم الرضا عن مفهوم المجال، الذي يصفه بأنّه غير محدّد، "لا بداية له ولا نهاية". وعلى ذلك، ينظر رافستين إلى المجال على أنه معطى، يتكوّن من النظم البيئية الطبيعية، أمّا التراب فهو بناء ونتاج لنشاط الفاعلين فوق المجال[61].

وبعبارة أخرى، يؤكد الجغرافي الإنساني، غي دي ميو، أنّ التراب والترابية لا يمكن أن يوجدا إلا بالإشارة إلى الفاعلين الاجتماعيين وأفعالهم[62]. وعلى هذا النحو، تطوّر مفهوم التراب في الجغرافيا خلال الثمانينيات بديلاً من مفهوم المجال، في محاولة لصياغة فهم متعدّد التخصصات للتراب، يجمع بين جوانبه المادية والرمزية، على اعتبار أنّ له طبيعة مزدوجة: فهو مادي بوصفه مجالاً جغرافيًّا، ورمزي بوصفه بيئة اجتماعية. فالتراب هو، أولاً، مجال جغرافي يضم الشعور بالانتماء والاستملاك، ولكنه يُعدّ أيضًا مجالاً لممارسة السلطة. ومن ثمّ، فإنه يشهد على تملّك بعض المجموعات له من النواحي الاقتصادية والأيديولوجية والسياسية. وهكذا، فهو يحيل إمّا على وجود مجال اجتماعي ومجال معيش، يرتبطان بحياة المجتمعات التي تعيش عليه، أو إلى مجال جغرافي رتّبته ونظّمته السلطة. وضمن هذا الفهم، يُنظر إلى "الترابات" Territories بوصفها مجموعة من الأماكن التي لا تكون بالضرورة متجاورة، لكنها مترابطة شبكيًا، ومُندمجة معًا في موازين متغيرة، ومنتجة للمعاني والهويات[63]. ويميز دي ميو بين مفهومَي المجال والتراب، متحدثًا عن المجال الجغرافي بمعانٍ اجتماعية؛ أي المجالات المنتَجة والمدرَكة والمتمثَّلة والمعيشة والاجتماعية. ويعتمد في تعريفه للتراب على لبنتين أساسيتين: المجال الاجتماعي والمجال المعيش؛ باعتبار أنّ الأول يتضمن أماكن تتشابك فيها العلاقات الاجتماعية والمجالية، بينما يعبّر الثاني عن علاقة جودية وذاتية، بوصفها علاقة مشبعة بالقيم الثقافية، يشعر من خلالها كلّ شخص منتمٍ إلى المجال بالانتماء إلى مجموعة محلية. إضافة إلى ذلك، يضيف الباحث ثلاثة معانٍ للتراب. فهو، أولاً، يستند إلى بيانات جغرافية تبني الانتماء والهوية الجماعية، وتحدّد

(59) Joël Bonnemaison, *Culture and Space: Conceiving a New Cultural Geography*, Chantal Blanc–Pamard, Maud Lasseur & Christel Thibault (eds.), Josée Pénot–Demetry (trans.) (London/ New York: I.B. Tauris, 2005), p. 114.

(60) Ibid., p. 115.

(61) Claude Raffestin, "Space, Territory, and Territoriality," Samuel A. Butler (trans.), *Environment and Planning D: Society and Space*, vol. 30, no. 1 (2012), p. 124.

(62) Guy Di Méo, "Une géographie sociale entre représentations et action," *Montagnes méditerranéennes et développement territorial*, no. 23 (2008), p. 5.

(63) Pierre Champollion, "Territory and Territorialization: Present State of the Caenti Thought," Paper presented at the International Conference of Territorial Intelligence, Alba Iulia, Romania, September 2006, p. 4.

علاقتنا بالآخرين[64]. وهو، ثانيًا، يعكس نمط الضبط والسيطرة على المجال، وإعادة إنتاجه من جانب المجموعات البشرية التي تبنيه؛ وهذا هو بعده السياسي. وهو يشكّل، ثالثًا، حقلاً رمزيًا يساعد على ترسيخ الهوية الجماعية للأفراد؛ ما يجعله أداة قوية للتعبئة الاجتماعية[65]. وإجمالاً، يمكن القول إنّ مفهوم التراب، كما تصوّره الجغرافيون، يسعى لتجاوز حتمية التحليل الاقتصادي، من خلال التركيز على أبعاد أخرى للحياة الاجتماعية، مثل الأبعاد الثقافية والسياسية. فهو مفهوم ذو بعد مادي ورمزي، وبناء اجتماعي يتضمن استملاك جماعة ما لمجال محدد، يُبنى وفق شبكات ثقافية واقتصادية واجتماعية، وذلك من خلال ممارسات الفاعلين الاجتماعيين المحليين، باعتباره مجالاً لإنتاج الهوية. غير أنّ لوف تنتقد تصورات المجال بوصفه ترابًا؛ إذ ترى أن التراب مصطلح يُستخدم للدلالة على سطح مادي فوق الأرض، ويتغاضى بطبيعته عن الإشارة إلى العمليات الرمزية للبناء الاجتماعي. وبالنسبة إليها، يقف مفهوم التراب عاجزًا عن تفسير كيفية توليد مجالات مختلفة على التراب الواحد. كما ترى أنّ تصوّر المجال، بوصفه ترابًا ماديًا، يسمح باستخدامه على نحوٍ مجازي واستعاري، ويؤدي إلى افتراض أنّ المجال هو موضوع جغرافي لا سوسيولوجي. وقد أثّر ذلك في اهتمام علماء الاجتماع بدراسة المجال، لأنه يجب، في نظرهم، تفسير المجتمع على أساس العمليات الاجتماعية فقط. وللخروج من المأزق، تفترض لوف أنّ المجال مشتق من الأشخاص والسلع الاجتماعية، ولا وجود لفصل بينهما. وبدمج المجال في مسار الفعل، يصبح بنية دينامية ومقولة وصفية وتحليلية وتفسيرية في علم الاجتماع[66]. ويتطلّب ذلك، بالنسبة إليها، تغييرًا في الرؤية؛ بحيث لا يُفترض وجود واقعَين مختلفين، هما المجال والفعل، بل يجب أن يُستمد المجال من تفاعل البنية والفعل[67]. وفي السياق ذاته، تؤكّد لوف أنّ المكان هو "التموقع" في المجال، أي عنصر يحدّد الموقع مجاليًا Spacing. ومن ثمّ، ترى أنّ التمييز بين المجال والمكان هو تعريف اصطلاحي أساسي؛ فالمكان يعني موقعًا محددًا جغرافيًا يحمل اسمًا، ويكون متفردًا. وهذه التسمية تعزز التأثير الرمزي للأماكن[68].

ثالثًا: مارتينا لوف والترتيب العلائقي: نحو مفهوم سوسيولوجي للمجال

في بناء مفهوم سوسيولوجي للمجال، يكون الاستناد أساسًا إلى إسهام لوف[69]. فهي تشير، على غرار ريمي، إلى أنّ مفهوم المجال في حدّ ذاته غير قابل للدراسة الخبرية؛ لأنه مصطلح تقني

(64) Guy Di Méo, "De l'espace aux territoires: éléments pour une archéologie des concepts fondamentaux de la géographie," *L'Information Géographique*, vol. 62, no. 3 (1998), p. 107.

(65) Ibid., pp. 107–108.

(66) Löw, *The Sociology of Space*, p. 5.

(67) Ibid., p. 40.

(68) Ibid., p. 168.

(69) تنطلق لوف، في اعتباراتها هذه، من نظرية غيدنز في البنيوية؛ حيث تتحوّل ثنائية البنى (الموضوعية) مقابل الفعل (الذاتي) إلى ازدواجية البنى (بغض النظر عن مفهومه للمجال). وإضافة إلى ذلك، تركّز لوف، أُسوة ببورديو، تركيزًا قويًا على الجسد والهابيتوس بوصفهما وسيطين بين النية والفعل. وبالرجوع إلى أعمال راينهارد كريكل Reinhard Kreckel، تقترح إمكانية الربط بين المادي والرمزي، بوصفهما أداتين تحليليتين لإدماج المجال في العملية الاجتماعية. ينظر: Ibid., p. 7.

ومجرد[70]. وعلى النقيض من ذلك، ترى أنّ مهمة علم الاجتماع هي دراسة عملية تشكيل المجال وتكوينه The Constitution of Space. ولذلك، تعدّه ترتيبًا علائقيًّا Relational Arrangement لأجسام متحركة وديناميّة. وهذا يعني أنّ المجال يتشكّل في الزمن أيضًا؛ ولذلك، لا يمكن أن يكون وعاءً تحدث فيه الأشياء بمعزل عن الظروف الاجتماعية والمادية، بل إنّ المجال وعالم الأجسام المادية متشابكان على نحو وثيق[71]. وعليه، وبحسب لوف، يسمح ترتيب الأجسام Bodies بالوقوف على نتيجتين. فمن جهة أولى، يسمح هذا الترتيب بتشكيل المجالات. فإذا تخيلنا غرفة منزلية، وفكرنا في الأبواب والجدران والنوافذ والرفوف والطاولات وما إلى ذلك، ظهرت المجالات من خلال ترتيب هذه العناصر، وباعتبار هذه الأجسام المرتبة نتاجًا للأفعال المادية والرمزية، التي تعبّر عنها لوف بـ"السلع الاجتماعية" Social Goods. وتتكوّن هذه السلع من سلع مادية مثل الطاولات والكراسي والمنازل، وسلع رمزية مثل الأغاني والقيم. وهكذا، تُرتَّب السلع وفقًا لخصائصها المادية، غير أنّ فهم هذه الترتيبات لا يتم إلا عبر فكّ رموز خصائصها الرمزية. وعلى الرغم من تركيز لوف على الجانب الاجتماعي في السلع المادية، لكونه يتضمّن نشاط الترتيب في المكان، فإنّها تؤكد، في مثال حركة مرور المركبات، أنّ الرموز لا تُرتَّب إلا لأنها مادية، وإلا لما كانت لها قوة رمزية. وبذلك تخلص إلى أنّ المجالات يمكن تحديدها بوصفها ترتيبًا علائقيًا للسلع الاجتماعية. ومن جهة ثانية، يشارك الأشخاص في تشكيل المجالات، باعتبارهم عناصر مترابطة أو نتيجة لأفعالهم. فمثلاً، عندما ننظر إلى قاعة حفلات، نلاحظ أنّها لا تتشكّل من خلال ترتيبات المقاعد والغرف فحسب، بل أيضًا من خلال ترتيبات الأشخاص والمجموعات التي تسمح بتشكيل المجال. فالأشخاص القريبون اجتماعيًا بعضهم من بعض يتركون مسافة أقل بينهم، مقارنة بالمسافة التي يتركونها بينهم وبين الغرباء[72]. تستخدم لوف مفهوم الترتيب العلائقي، لإبراز حقيقة أنّ المجال ينبثق من العناصر ومن اتصالها العلائقي. فهو ليس مادة محضة ولا علاقة فحسب، بل ينبثق أيضًا من الترتيب؛ أي من تموقع ما في علاقته بالتموقعات الأخرى. ويشير مصطلح الترتيب إلى بُعدين: البعد البنيوي أي الترتيب بوصفه مُنظِّمًا، والبُعد العملي أي الترتيب بوصفه فعلاً. فالترتيب عملية يمكن فيها التمييز تحليليًا بين نشاطَين مختلفَين يتشكّل المجال من خلالهما: عملية التوليف Synthesis، و"المَجَالَة" Spacing[73]. ذلك أنّ العملية الأولى تجعل من الممكن الجمع بين السلع والأشخاص في عنصر واحد لإنتاج المجالات. والمجالات لا توجد على نحو طبيعي، بل تُنتَج ويُعاد إنتاجها على نحو نشط من خلال عملية التوليف؛ أي عبر الجمع بين السلع الاجتماعية والأشخاص بوساطة عمليات التخيّل والإدراك والذاكرة. وتكون عملية الربط هذه مبنية اجتماعيًا على نحو مسبق، من خلال الأفكار عن المجال، والبنى المؤسِّسة له، والهابيتوس الخاص بالطبقة والنوع الاجتماعي والثقافة. أمّا فيما يخص الفعل، فترتبط عملية التوليف

(70) Ibid., p. 6.

(71) Ibid., p. 106.

(72) Ibid., pp. 130–131.

(73) تُشتقّ المجالة مباشرة من الجذر نفسه الذي اشتُق منه المجال، أي الجذر: م ج ل، وذلك حفاظًا على الترابط اللفظي والدلالي بين المصطلحين. فالمجال هو الكيان، أمّا المجالة فهي العملية التي تُشكِّل هذا الكيان أو تحدث بداخله. وبذلك، لا تُغيّر المجالة المعنى الأساسي للمجال، بل تضيف إليه بُعدًا فعليًا وعمليًا.

بعمليات الموقعة؛ أي وضع السلع الاجتماعية أو الكائنات الحية، أو تموضعها الذاتي في الأماكن، وهو ما تسميه لوف المجالة[74]. وبعبارة أخرى، تمثّل المجالة الفعل النشط للترتيب؛ أي وضع الأشياء والسلع والأشخاص في الأماكن. فعلى سبيل المثال، عندما نرتّب أثاث غرفة، فإنّنا نوزّع الأشياء على مواقع محددة، تعكس الهدف من كلّ غرفة، سواء أكانت مخصصة للمعيشة أم النوم أم العمل، كما تعكس علاقتنا بالأشياء، مثل مكان الجلوس، أو موضع الكتب، وصولاً إلى تصوراتنا الجمالية للمكان. ومن ثمّ، ليست المجالة فعلاً ماديًا محضًا، بل هي فعل اجتماعي وسياسي، يرتبط بسلطة بناء المجال والوصول إلى موارده، ويعبّر عن بنى السلطة وعدم المساواة في المجال. أمّا التوليف، بمعنى الربط وإضفاء المعنى، فهو العملية التي تحوّل المجال من أماكن منفصلة إلى مجالات ذات معنى. وباعتماد المثال نفسه، أيّ الغرفة التي يُرتَّب أثاثها، فإننا نولّف هذه العناصر من خلال تجربتنا لها؛ فالكرسي يصبح مكانًا للراحة، والمكتب يصبح مكانًا للعمل، والصور على الحائط تستحضر الذكريات ... إلخ. وتوجِد هذه الروابط المعرفية والعاطفية بالأثاث، في ترتيبه داخل الغرفة، إحساسًا خاصًا بها باعتبارها مجالاً خاصًا. ويفسر ذلك بأنّ التوليف يعتمد على الحواس والإدراك والذاكرة والخيال، وغيرها. إنّه عملية تتشكّل من خلالها تجاربنا الفردية والجماعية. ومن ثمّ، فإنّ التشكّل المستمر للمجال يتطلّب، بحسب لوف، هذا التفاعل الدينامي بين المجالة والتوليف. بناءً على ذلك، ترفض لوف الفصل التقليدي في علم الاجتماع بين المجال المادي والمجال الاجتماعي، كما هو الحال عند بورديو ولوفيفر. فوفقًا لتصورهما، المجتمع هو الذي يبني المجال. وعلى النقيض من ذلك، ترى لوف أنّ الترتيب العلائقي للمجال يتضمن بعدًا بنيويًا وبعدًا حركيًا، وتشير، على هذا الأساس، إلى أنّ ترتيبات السلع الاجتماعية والأشخاص لإنتاج المجالات هي بنى مجالية. ولذلك، تؤكد أنه لا ينبغي فصل المجالي عن الاجتماعي؛ لأنه هو ذاته من أشكال البنى الاجتماعية. وعليه، وإلى جانب البنى السياسية والاقتصادية والقانونية، وغيرها، هناك أيضًا بنى مجالية وزمنية، وهذه كلّها تشكّل معًا بنية اجتماعية. إنّ البنى المجالية، ككل أشكال البنى، تتحقّق من خلال الفعل، لكنها أيضًا تُهيكله؛ فهي تنتج شكلاً من الفعل يعيد هو ذاته إنتاج هذه البنى المجالية[75]. وبتعبير آخر، تجعل البنى المجالية الفعل ممكنًا، وتحدّ في الوقت نفسه من إمكانات الفعل الذي يشكّلها. في الحياة اليومية، تتشكّل المجالات بصفة رتيبة عبر الوعي العملي الذي ينشأ عليه الأشخاص ويتصرّفون وفقًا له. وهنا تنتقل لوف من الفعل إلى البنية الاجتماعية، ولا سيما مع مؤسسية الترتيبات المجالية؛ حيث يُضفى الطابع المؤسسي على الروابط والأماكن. فعلى سبيل المثال، أصبحت محطات القطارات مرتّبة على نحو متشابه في أنحاء ألمانيا، من خلال الأشكال الملونة التي تؤثثها، والشاشات الضخمة التي توضع فيها، وتجمّع المتاجر ضمنها، وغير ذلك[76]. لذلك، عندما نتحدث عن المجالات المؤسسية، فإنّ ترتيباتها تظل مستمرة بعد الفعل الفردي، وتُعاد صياغتها في الروتين الاجتماعي؛ أي في الممارسات الاجتماعية العادية. وتظهر التغييرات عندما تنشأ انحرافات عن هذا الروتين؛ ممّا يؤدي إلى استبدال

(74) Ibid., pp. 134–135.

(75) Ibid., p. 145.

(76) Ibid., p. 140.

الروتين القديم بأفعال روتينية جديدة. إنّ إنشاء الفرد ترتيبات مؤسسية خاصة به يمثّل نزعة مضادة للثقافة السائدة، تفتح خيارات جديدة للفعل، ويمكن أن تؤدي إلى تغييرات في البنى الاجتماعية. غير أنّ القاعدة العامة لعملية تشكيل المجالات في الفعل تفيد أنّها لا تتمّ على نحوٍ منفصل، بل عبر عمليات تفاوض مع فاعلين آخرين، يمثّل فيها التفاوض على بنى السلطة جانبًا جوهريًا. وتُنظَّم مبادئ التوزيع والدمج والفصل عن طريق المجالات؛ أي عن طريق الترتيبات العلائقية للسلع الاجتماعية والكائنات الحية، ولا سيّما عن طريق الترتيبات المؤسّسية. ذلك لأنّ تشكيل المجالات يولّد توزيعات غير متكافئة بين المجتمعات وداخل المجتمع الواحد، أو توزيعات لمصلحة مجموعة معيّنة على حساب أخرى. ومن ثمّ، فإنّ امتلاك رأس المال، أو المؤهلات، أو الرتبة، أو الانتماء إلى جمعية ما، أمر حاسم في مسألة إمكانية وضع الترتيبات المجالية[77].

خاتمة

يتطلّب بناء مفهوم سوسيولوجي للمجال، بحسب لوف، اعتماد مقاربة علائقية. فالقول إنّ المجال ليس مادة جامدة ولا علاقة مجردة يَفرض فهمه بوصفه نتاجًا لترتيب علائقي للأجسام المتحركة. ويتشكّل هذا المجال من خلال عمليتين متلازمتين: المجالة بوصفها فعل وضع وموقعة، و"التوليف" بوصفه فعلاً إدراكيًا رابطًا. وتكتسب المجالات صبغتها "المؤسسية" عندما تستمر ترتيباتها وتأثيراتها خارج نطاق الفعل الفردي، لتصبح جزءًا من البنى المجالية التي تُهيكل الفعل الاجتماعي؛ فتفتحه على إمكانات محددة أو تحدّ من آفاقه.

يتأثّر تداخل الفعل والبنية بعوامل بنيوية، كالطبقة والنوع الاجتماعي؛ ممّا يجعل تشكيل المجال محكومًا بالحمولة المادية والرمزية للفعل، وبهابيتوس الفاعلين، وبقدراتهم الجسدية. ومن هنا، تبرز المجالات بوصفها مسارح للصراع الاجتماعي؛ حيث يُعاد إنتاج اللامساواة عبر السيطرة على الترتيبات المجالية، أو عبر تحويل الوصول إلى المجال نفسه إلى مورد للقوة. ولا يكتمل هذا الفهم من دون استحضار "المناخات" Atmospheres، التي تمثّل البُعد الحسي والمعيشي للمجال[78].

هنا تبرز أهمية تحليل النوع الاجتماعي، على سبيل المثال، بوصفه عنصرًا بنيويًا في إنتاج المجال. فالمجال ليس حياديًا، بل يُعاد إنتاجه عبر ممارسات جسدية ورمزية تكرّس التمايزات الجندرية في الأمكنة، كما في دراسة لوف عن النساء عاريات الصدر على الشاطئ. ذلك أنّ تشكيل المجال، أو بناء "ترابات الذات" Territories of the Self، لا يتمّ بوضع العلامات المادية مثل الحقائب والمناشف فحسب، بل يُشاد أيضًا عبر "ثقافة النظرة" وتقنيات الجسد، حيث يمارس الفاعلون "فن الرؤية دون نظر" للحفاظ على حدود الخصوصية[79]. وعليه، فإنّ إنتاج المجال هو في جوهره إعادة إنتاج للمبادئ

(77) Ibid., p. 191.

(78) Ibid., p. 233.

(79) Martina Löw, "The Social Construction of Space and Gender," *European Journal of Women's Studies*, vol. 13, no. 2 (2006), pp. 119–133.

البنيوية لتنظيم المجتمع. فالنوع الاجتماعي ليس شيئًا نحمله معنا إلى المجال، بل هو شيء نفعله وننقشه في المكان من خلال كيفية توزيعنا للأشياء، وكيفية استخدامنا لأجسادنا، وكيفية توجيهنا لنظراتنا. وبهذا المعنى، يكون المجال نظام ترتيب ديناميًا، يجسد علاقات السلطة والتفاوتات الاجتماعية، ومنها التفاوتات الجندرية.

تأسيسًا على ما وقفت عليه النقاشات التي استعرضناها، يتبدى مفهوم المجال في السوسيولوجيا، بوصفه مفهومًا علائقيًا بامتياز؛ إذ يعمل على صهر البنى المجالية والاجتماعية في بوتقة واحدة، وهي بنى تشرط الفعل الاجتماعي وتتأثّر به في آنٍ واحد. وحين يُقارَب المجال من هذا المنظور العلائقي، يتحوّل إلى مقولة تحليلية وعدسة تتيح لعلماء الاجتماع استكشاف رؤى جديدة وتعميق فهم الإشكاليات الراهنة. وفي هذا السياق، تؤكّد لوف وفولر ضرورة اتخاذ "المجال العلائقي" إطارًا مرجعيًا في الخيال السوسيولوجي. ولتحقيق ذلك، فكّكا جملة من التصوّرات المغلوطة حول النظرية "السوسيومجالية"، منها: أولًا، اختزال علم اجتماع المجال في تحليل تأثيرات الرأسمالية في المجال، كما تذهب إلى ذلك أطروحات الاقتصاد السياسي؛ وثانيًا، قصرُه على الدراسات الحضرية أو الجهوية دون غيرها؛ وثالثًا، التعامل مع الاستعارات المجالية، التي تستخدم المفهوم رمزيًا، على أنّها لا تتماهى مع علم اجتماع المجال[80].

بهذا الفهم، يتمتّع المجال العلائقي، باعتباره مقولة إجرائية وأداة تحليلية وفق لوف وفولر، بقدرة واسعة على وصف الحياة الاجتماعية وتحليلها وتفسيرها. فمن خلال الوصف الطولي المكثّف، يمكن تتبع صيرورة إنتاج المجال وآليات تشكّله. ويفتح علم اجتماع المجال، بوصفه أداة تحليلية، آفاقًا للتقصي تتكامل مع الأدوات التحليلية الأخرى أو تتجاوزها، لا سيّما عند تقاطعه مع مقولات من قبيل الطبقة، والعرق، واللامساواة. وتتمثّل القوة التفسيرية لهذا المنظور في كشف كيفية انبثاق المجال وانغراسه في صلب الواقع الاجتماعي. وبتعبير آخر، يتيح الخيال السوسيولوجي، الذي يعتمد مقولة المجال العلائقي، لعلماء الاجتماع استنطاق فاعلية المجال، واستكشاف ماهية التأثيرات السوسيومجالية المترتبة على تشكّله[81]. علاوة على ذلك، تحثّ لوف وسيفيرين مارغوين على ضرورة تبنّي اعتبارات منهجية مبتكرة لاستنطاق المجال سوسيولوجيًا، مثل الخرائط الذهنية، والمقابلات التي تتتبع المسارات التواصلية والمادية التي تُشكّل الواقع الاجتماعي، وغيرها من الأدوات التي تتيح الكشف عن المعارف المكانية والتمثّلات المجالية الكامنة لدى الفاعلين[82].

فضلًا عن ذلك، تتجاوز راهنية سوسيولوجيا المجال اليوم الحدود التقليدية للدولة القومية والمنظورات الحضرية الكلاسيكية؛ حيث ينتقل التركيز، مع لوف وهوبير نوبلاوخ، نحو تشخيص "إعادة تشكيل

(80) Fuller & Löw, p. 475.

(81) Ibid., p. 479.

(82) Martina Löw & Séverine Marguin, "7 Eliciting Space: Methodological Considerations in Analyzing Communicatively Constructed Spaces," in: Gabriela B. Christmann, Hubert Knoblauch & Martina Löw (eds.), *Communicative Constructions and the Refiguration of Spaces: Theoretical Approaches and Empirical Studies* (New York: Routledge, 2022).

العالم الاجتماعي". في هذا المنظور، لم يعد المجال يُفهم على أنه بناء اجتماعي ساكن، بل بوصفه عملية بناء تواصلي Communicative Construction مستمرة؛ إذ تُسهم التكنولوجيات الحديثة والرقمية في إيجاد تداخل بين المجالات الفيزيائية والافتراضية؛ ممّا يؤدي إلى حالة من "تعدّد السياقات" وتوتر البنى بين ما هو محلي وما هو عابر للحدود[83]. إنّ تشخيص "الحداثة المُعاد تشكيلها" هذا يكشف عن توتر بنيوي متصاعد؛ فبينما تبرز سلاسلُ اعتمادٍ متبادلٍ عابرةٌ للأقاليم وتتنامى شبكات رقمية ذاتُ بنى أفقيةٍ مرنة، تُعاد تقوية الأماكن ذات الحدود الإقليمية الثابتة والهويات الوطنية، كما في ظاهرة البريكست وحركات مناهضة الهجرة[84].

بناءً على هذه المنطلقات، يمكن القول إنّ القراءة الحديثة لمفهوم المجال تُعدّ تحولاً راديكاليًا ينقل السوسيولوجيا من "منطق الوعاء" إلى برديم "إعادة التشكّل" Refiguration. فلم يعد المجال وعيًا ذاتيًا أو "توليفًا" ذهنيًا للفرد فحسب، بل انتقل إلى "بناء تواصلي" محكوم بعلاقة ثلاثية تتأسّس على التبادلية Reciprocity بين الذوات عبر وسيط مادي أو رمزي. ومن خلال تجاوز المنظور الذاتي، يبرز المجال بوصفه أداءً جسديًا ماديًا يُستدل عليه بممارسات مثل "الإشارة"، التي تستبق موقع الآخر وتبني مجالاً مشتركًا يتجاوز الحضور الفيزيائي[85]. وفي ظلّ الوساطة الرقمية Digital Mediatization المعاصرة، يتعمّق هذا التحوّل ليوجِد توترًا نزاعيًا بين منطقَين مجاليين متناقضين: الشبكات الرقمية الأفقية المنبسطة، والتراتبيات العمودية المؤسسية؛ ممّا يلغي الفصل التقليدي بين المستويين "الميكرو" و"الماكرو". ويفسِّر هذا المنظور النقدي الحداثة الحالية باعتبارها صيرورة من "إلغاء الترابية/ الإقليمية وإعادتها" De/Re–territorialization، حيث تتبدل طبيعة الأجسام والموضوعات عبر الرقمنة لتتحوّل إلى رموز؛ وهو ما يجعل من المجال مختبرًا تتقاطع فيه الأجساد، والتقنيات، وعلاقات السلطة. وهذا هو المفتاح لفهم "الحداثة المُعاد تشكيلها" التي نعيشها اليوم، حيث يتصادم الانفتاح الشبكي مع الانغلاق الإقليمي في صيرورة مستمرة[86].

من المهم، في هذا السياق، التساؤل عن مدى حضور مثل هذه الاعتبارات المفهومية والنظرية والمنهجية في الدراسات العربية عن المجال، أو حضور ما يمكن أن يشتبك معها ويقترح لها مقابلات أو بدائل، انطلاقًا من قراءة في تاريخ التطوّر الخاص لمفهوم المجال، بوصفه مفهومًا، إن وُجد، في البحوث الاجتماعية العربية.

(83) Hubert Knoblauch & Martina Löw, "On the Spatial Re–Figuration of the Social World," *Sociologica*, vol. 11, no. 2 (2017).

(84) Hubert Knoblauch & Martina Löw, "The Re–Figuration of Spaces and Refigured Modernity: Concept and Diagnosis," *Historical Social Research*, vol. 45, no. 4 (2020).

(85) Hubert Knoblauch & Silke Steets, "From the Constitution to the Communicative Construction of Space," in: Christmann, Knoblauch & Löw (eds.), pp. 24–26.

(86) Ibid., pp. 31–32.

المراجع

References

العربية

أوجيه، مارك. **أنثروبولوجيا العوالم المعاصرة**. ترجمة طواهري ميلود. الجزائر/ بيروت: دار ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية – ناشرون، 2016.

_____. **اللاأمكنة: مدخل إلى أنثربولوجيا الحداثة المفرطة**. ترجمة ميساء السيوفي. المنامة: هيئة البحرين للثقافة والآثار، 2018.

باومان، زيجمونت. **الحداثة السائلة**. ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016.

بؤس العالم. ج 1: رغبة الإصلاح. إشراف بيير بورديو. ترجمة محمد صبح. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، 2010.

غيدنز، أنتوني، وفيليب صاتن. **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**. ترجمة محمود الذوادي. سلسلة ترجمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

فوكو، ميشيل. **جينالوجيا المعرفة**. ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1988.

_____. **المراقبة والعقاب: ولادة السجن**. ترجمة علي مقلد. بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990.

هارفي، ديفيد. **حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي**. ترجمة محمد شيا. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005.

الأجنبية

Akoun, André & Pierre Ansart. *Dictionnaire de sociologie*. Paris: Le Robert/ Seuil, 1999.

Bonnemaison, Joël. *Culture and Space: Conceiving a New Cultural Geography*. Chantal Blanc–Pamard, Maud Lasseur & Christel Thibault (eds.). Josée Pénot–Demetry (trans.). London/ New York: I.B. Tauris, 2005.

Bourdieu, Pierre. *Choses dites*. Paris: Les Éditions de Minuit, 1987.

Castells, Manuel. *The Urban Question: A Marxist Approach*. Alan Sheridan (trans.). London: Edward Arnold, 1977.

_____. "Local and Global: Cities in the Network Society." *Tijdschrift voor Economische en Sociale Geografie*. vol. 93, no. 5 (2002).

Champollion, Pierre. "Territory and Territorialization: Present State of the Caenti Thought." Paper presented at the International Conference of Territorial Intelligence. Alba Iulia, Romania. September 2006.

Christmann, Gabriela B., Hubert Knoblauch & Martina Löw (eds.). *Communicative Constructions and the Refiguration of Spaces: Theoretical Approaches and Empirical Studies*. New York: Routledge, 2022.

Dassetto, Felice & Jean Rémy. "La question de l'espace en sociologie." *Recherches Sociologiques et Anthropologiques*. vol. 48, no. 1 (2017).

Di Méo, Guy. "De l'espace aux territoires: éléments pour une archéologie des concepts fondamentaux de la géographie." *L'Information Géographique*. vol. 62, no. 3 (1998).

_____. "Une géographie sociale entre représentations et action." *Montagnes méditerranéennes et développement territorial*. no. 23 (2008).

Foucault, Michel. "Of Other Spaces." Jay Miskowiec (trans). *Diacritics*. vol. 16, no. 1 (Spring 1986).

Fuller, Martin G. & Martina Löw. "Introduction: An Invitation to Spatial Sociology." *Current Sociology*. vol. 65, no. 4 (2017).

Gieryn, Thomas F. "A Space for Place in Sociology." *Annual Review of Sociology*. vol. 26, no. 1 (2000).

Grandjean, Pernette (dir.). *Construction identitaire et espace*. Paris: L'Harmattan, 2009.

Habermas, Jürgen. "The Public Sphere: An Encyclopedia Article (1964)." Sara Lennox & Frank Lennox (trans.). *New German Critique*. no. 3 (1974).

Knoblauch, Hubert & Martina Löw. "On the Spatial Re–Figuration of the Social World." *Sociologica*. vol. 11, no. 2 (2017).

_____. "The Re–Figuration of Spaces and Refigured Modernity: Concept and Diagnosis." *Historical Social Research*. vol. 45, no. 4 (2020).

Lefebvre, Henri. *The Production of Space*. Donald Nicholson–Smith (trans.). Oxford, UK/ Cambridge, MA: Blackwell, 1991.

Löw, Martina. "The Social Construction of Space and Gender." *European Journal of Women's Studies*. vol. 13, no. 2 (2006).

_____. *The Sociology of Space: Materiality, Social Structures, and Action*. Donald Goodwin (trans.). New York: Palgrave Macmillan, 2016.

Low. Setha. *Spatializing Culture: The Ethnography of Space and Place*. London/ New York: Routledge, 2017.

Lussault, Michel. *L'Homme spatial: La construction sociale de l'espace humain*. Paris: Seuil, 2007.

Massey, Doreen. *Space, Place, and Gender*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1994.

Raffestin, Claude. "Space, Territory, and Territoriality." Samuel A. Butler (trans.). *Environment and Planning D: Society and Space*. vol. 30, no. 1 (2012).

Relph, Edward. *Place and Placelessness*. London: Pion, 1976.

Rémy, Jean."Spatialité du social et transaction." *SociologieS*. 16/6/2016. at: https://acr.ps/hBybGGa

Scott, John. A *Dictionary of Sociology*. 4th ed. Oxford: Oxford University Press, 2014.

Turner, Bryan S. (ed.). *The Cambridge Dictionary of Sociology*. Cambridge/ New York: Cambridge University Press, 2006.

Warf, Barney & Santa Arias (eds.). The *Spatial Turn: Interdisciplinary Perspectives*. London/ New York: Routledge, 2008.

Yang, Qingqing. *Space Modernization and Social Interaction*. Berlin: Foreign Language Teaching, 2015.

Zieleniec, Andrzej. *Space and Social Theory*. London: SAGE Publications Ltd., 2007.

_____. "The Right to Write the City: Lefebvre and Graffiti." *Environnement Urbain*. vol. 10 (2016).